بقايا القصر العباسي
.. أو قصر المأمون
في بغداد
اعداد: قسم الدراسات

منظر جانبي

عهد بناء القصر

الى اي عهد يرجع تاريخ بناء هذا القصر المهم ؟

ليس لدينا ـ مع الاسف ـ معلومات اكيدة عن هذه القضية .

لان كتب التاريخ المعلومة، لم توضح مواقع القصور وتقسيماتها بالضبط اللازم . كما انه لا يوجد في القصر كتابة واحدة تدل على تاريخ بنائه، او على واقعة من الوقائع التي حدثت فيه . ولم يظهر بين انقاضه ايضا، شيء مكتوب . سوى قطعة آجر مكسورة، كتب عليها ـ بين زخارف زهرية ـ (ذلك في) ان قسم التاريخ من هذه الكتابة مفقود، كما ان شكل الزخرفة التي عليها تدل على انها متأخرة عن البناء . فلا سبيل لمعرفة تاريخ البناء، سوى الاستدلال من الموقع ومن طراز الزخرفة والبناء .

لقد اصطلح الناس على تسمية القصر، باسم "قصر المأمون" غير انه لا مجال للشك في انه، متأخر عن عهد المأمون كثيرا . لان الاشكال الزخرفية المعلومة في عهد المأمون، وفي العهود التي تليه، بعيدة جدا عن زخارف هذا القصر . فان قصور الخلفاء في سامراء كانت مزينة بزخارف جبسية، مع انها كانت مبنية بالآجر . فلا شك في ان القصر الموجود في القلعة احدث من قصور سامراء باجمعها .

كما انه لا مجال للشك في ان انواع الزخرفة المشهودة هناك مما لا يمكن ان تتكون عن طريقة زخرفة الآجر مباشرة . بل انها من الاشكال التزيينية التي تولدت من استعمال مواد زخرفية اخرى ـ كالاحجار والاخشاب ـ والتي انتقلت منها الى الآجر، بعد تكاملها .

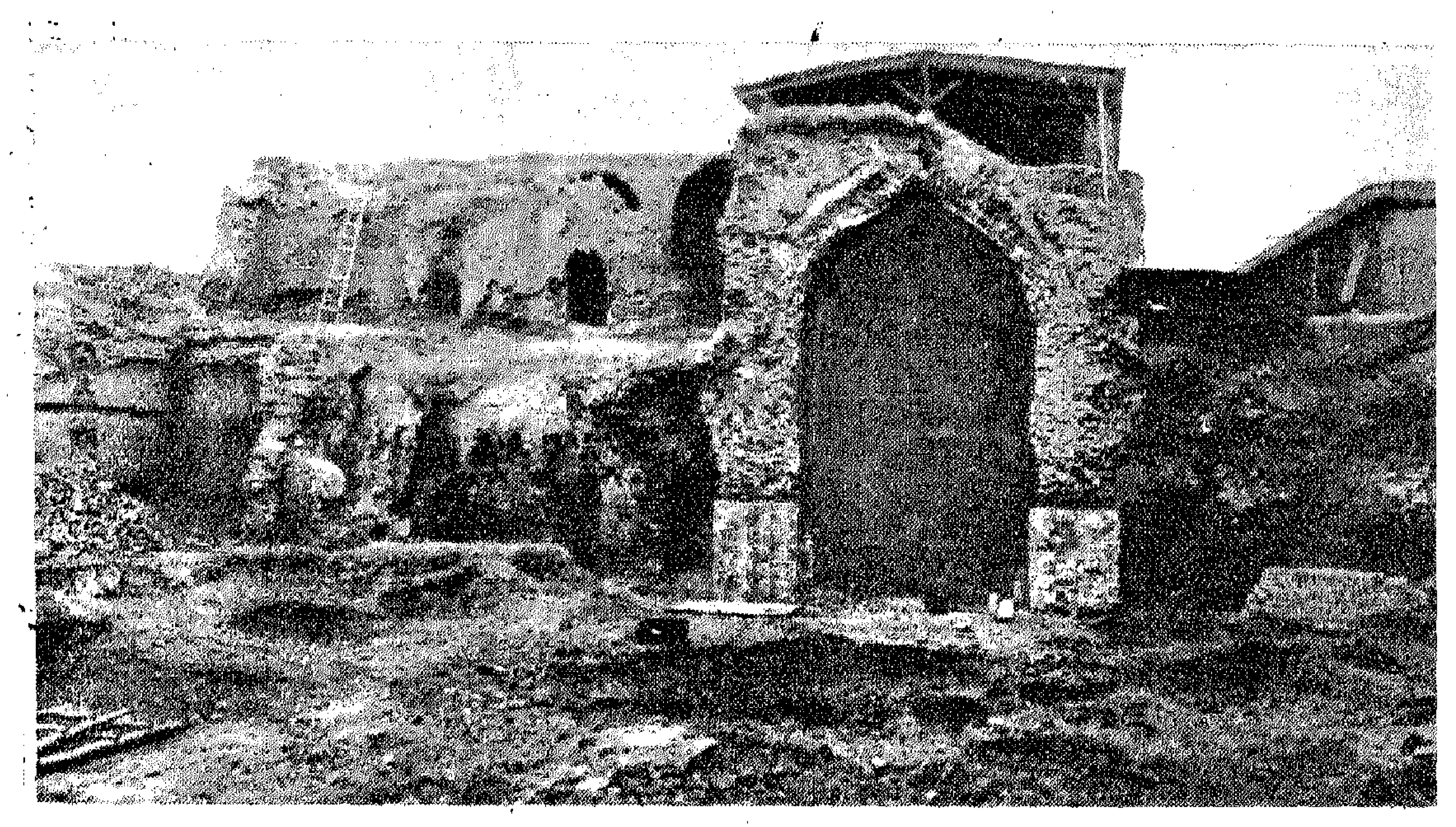
وبهذا الاعتبار، يسوغ لنا ان نجزم بان بناء القصر يعود الى اواخر العهد العباسي، لا اوائله . وانه لا يتقدم على تاريخ بناء المستنصرية بكثير من عقود السنين .

ولا يستبعد ان يكون ـ والحالة هذه ـ من المباني التي شيدت في عهد الخليفة الناصر لدين الله .

داخل قلعة بغداد . في الزاوية الجنوبية الغربية منها، ايوان قديم مزخرف، من بقايا قصر عباسي، يعرف بين الناس باسم "قصر المأمون" .

يتصل هذا الايوان من طرفيه بسلسلة من الغرف والقاعات والمجازات . وتتعامد هذه السلسلة، في الجهة اليسرى من الايوان . بسلسلة ثانية، تنتهي بمجاز مزخرف وحجرة مزخرفة، تفوق زخرفتها سائر الزخارف الموجودة في الايوان .

غير ان هذه الحجرة المزخرفة ـ مع مجازها البديع ـ كانت محرومة من المنافذ . وكان لا يدخلها النور الطبيعي الا من الثلمة الحادثة في سقفها المتضعضع . ولهذا السبب . كان الوصول اليها يستلزم اجتياز دهاليز مظلمة طويلة، مجهزة



منظر مأخوذ بعد رفع المباني المستحدثة (الجبهة الشرقية)

ببعض الفوانيس والمصابيح. وأما تمييز انواع الزخارف التي تزين سقوفها والقسم الاعلى من جدرانها، فكان من الامور العسيرة جدا. ولذلك، فان البعض من العلماء القليلين الذين دخلوا اليها، وكتبوا عنها، اعتبروها كـ"سرداب" لا يتم الوصول اليه الا باجتياز بعض الانفاق التي تمتد "تحت الارض".

وبما ان دعامات وجدران هذه الحجرة المزخرفة، كانت متضعضعة جداً. كما ان قسما من سقفها كان قد انهدم فعلا، رأت مديرية الآثار في اواخر سنة ١٩٣٤، ان تقوم بالتعميرات اللازمة لصيانتها، واخذت تهدم بعض الاقسام من الجدران المتصلة بها، بقصد تقويتها. غير انها عندما هدمت احد هذه الجدران. رأت من خلفه بقايا مزخرفة، في منتهى الاتقان والبداعة. وعندما تتبعت اثارها، لاحظت ان سلسلة القبب التي تمتد بين هذه الحجرة والايوان تتصل بجدار مزخرف قديم، كما فهمت ان القبة الكبيرة القائمة في الجهة اليمنى من الايوان ايضا تستند على حيطان مبنية امام جدران مزخرفة قديمة.

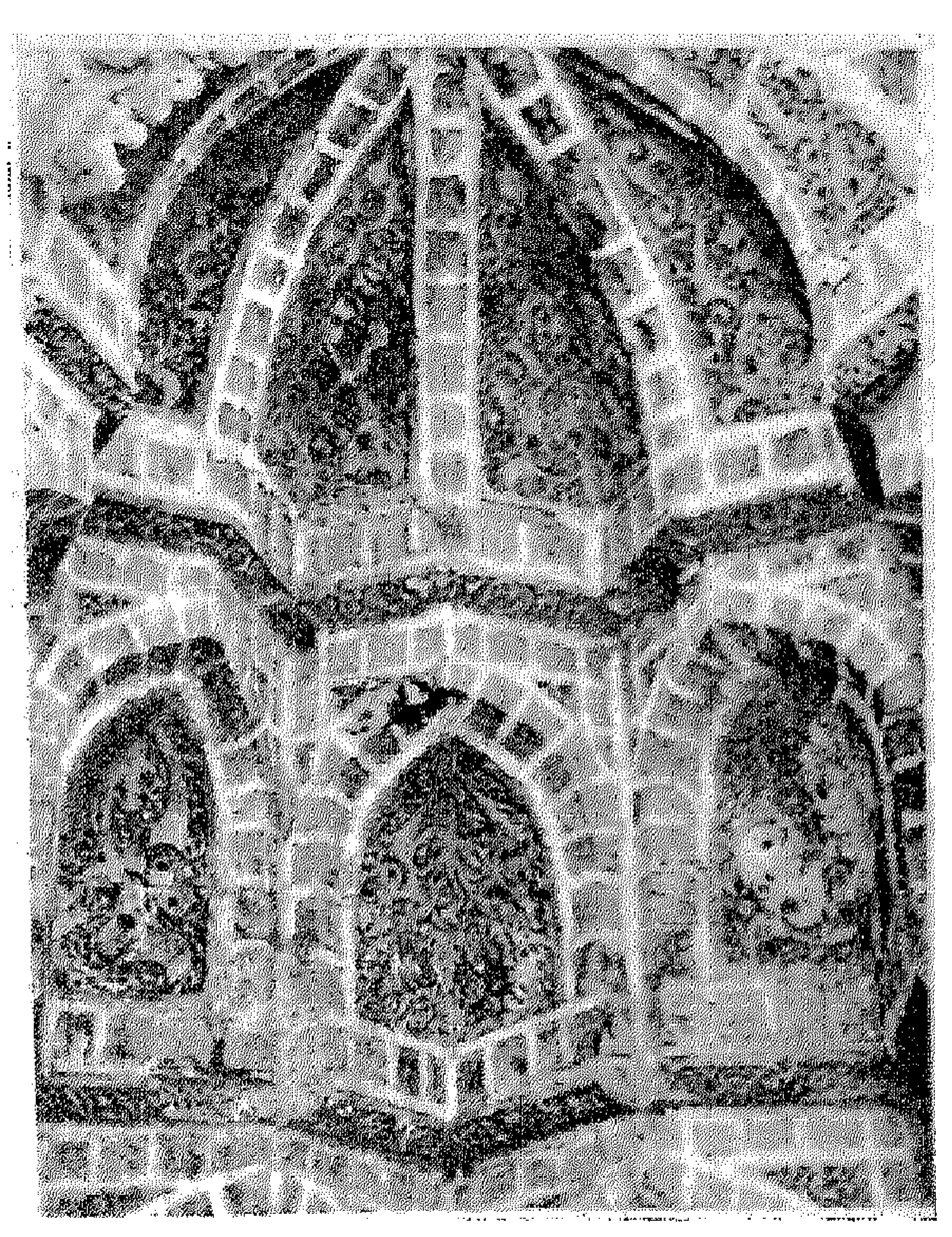
ولذلك، قررت هدم جميع الغرف والجدران المستحدثة، لاظهار الجدران القديمة وتقويتها، وباشرت في تنفيذ هذا القرار من فورها. كما رفعت جميع الانقاض المتراكمة، التي كانت قد كونت طبقة سميكة، لا يقل معدل سمكها عن المتر ونصف المتر في معظم اقسامها. وبعد ذلك حفرت بعض المحلات، فاظهرت بعض الاساسات العائدة الى الاقسام المتهدمة، فتوصلت بهذه الصورة الى معرفة مخطط القصر الاصلي وتقسيماته الداخلية، معرفة اكيدة.

كانت القلعة في العهد العثماني ثكنة للمدفعية، وهذا القسم منها كان مذخرا للعتاد الحربية. ولا شك في ان استعمال البناية لمثل هذه الغاية كان قد استلزم سد بعض الابواب والمنافذ القديمة، تارة بالآجر والجص، وطورا بالآجر والطين، واستحدث بعض الابواب والمنافذ عن طريق ثقب الجدران القديمة، تارة بصورة منتظمة، وطورا بصورة غير منتظمة ـ كما كان استلزم تشييد بعض الجدران والقبب الجديدة ـ بعضها مستند على اساسات قديمة، وبعضها مشيد على اسس جديدة فتشابك "القديم" و"الحديث" في البناية تشابكا عجيبا، فتباعد المجموع عن هيأته الاصلية تباعدا كبيرا.

فقد تبين خلال اعمال الصيانة التي قامت بها دائرة الآثار القديمة، ان المباني الموجودة كانت محصول ثلاثة ادوار اساسية، تفصل بين الاول والاخير منها مدة لا تقل عن سبعة قرون:

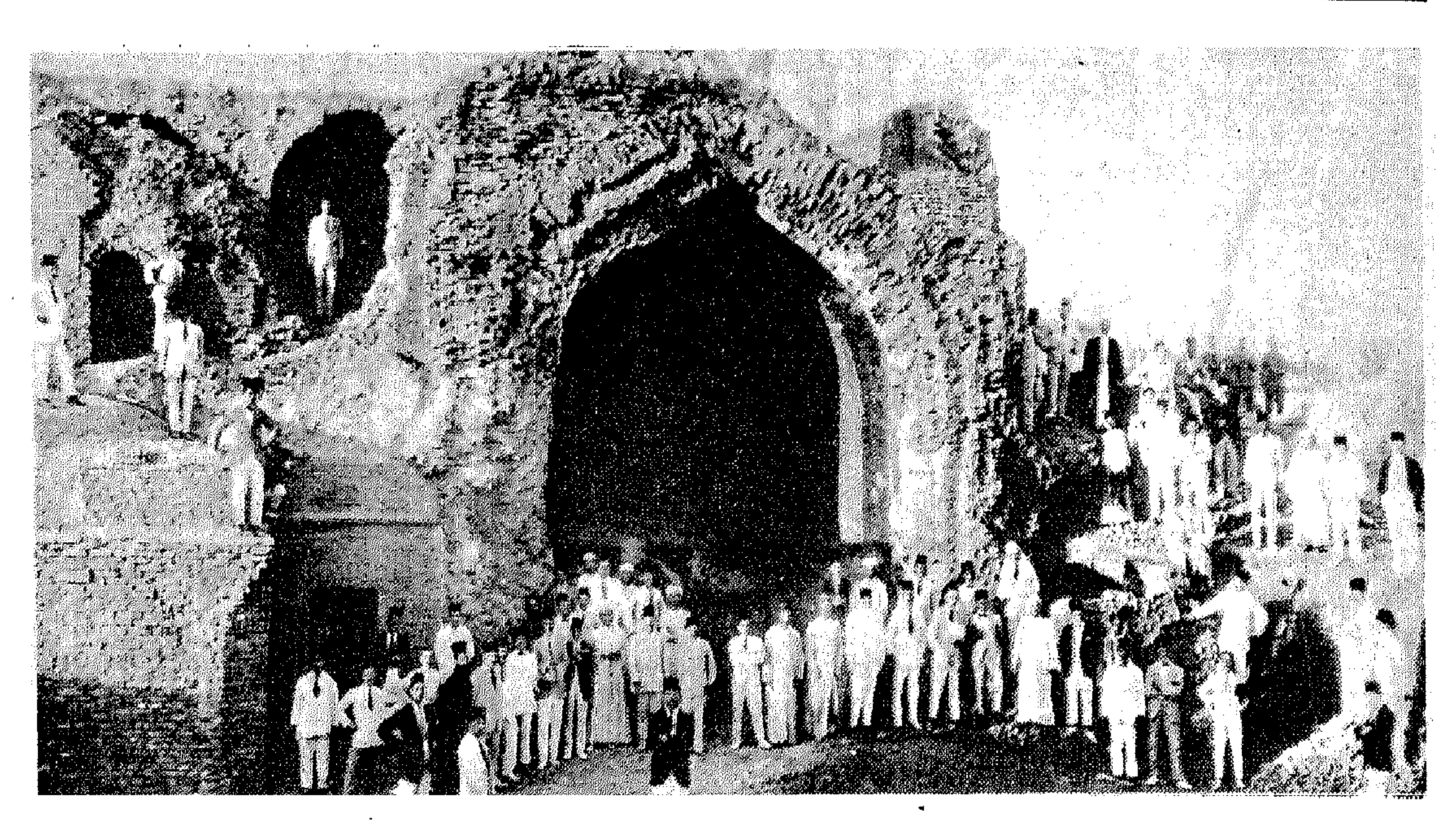
(آ) الايوان وغرف وقاعات القصر الاصلية.

(ب) البرج المستحكم الذي شيد ـ على ما يظهر ـ بعد شيوع استعمال المدافع، والالات النارية.



تفاصيل زخارف الرواق

تفاصيل الزخارف



منظر عام الايوان (سنة ١٩٢٣)

(ج) المخازن والغرف والقبب التي اضيفت الى بقايا القصر في العهد العثماني، بعد التنظيمات العسكرية.

فقد هدمت دائرة الآثار جميع الاقسام المستحدثة في الدور الاخير. غير انها حافظت على البرج المستحكم، لانها تأكدت من ان بنايته قديمة ايضا، ولو كانت احدث من بناية القصر. كما لاحظت انه مشيد بصورة مستقلة عن القصر، دون ان يغير من تقسيماته واجزائه الاصلية شيئا.

ان رفع الجدران المستحدثة، وتتبع اساسات الجدران المتهدمة، اظهرا بكل وضوح، ان القسم الامامي من الايوان كان ينتهي ببابين جانبيين، وان هذين البابين كانا يتصلان برواق مزخرف طويل، يدور حول الصحن، وينتهي بالحجرة المزخرفة القائمة الى الآن، والتي كانت تظهر كسرداب مظلم قبلا.

وخلال ترميم جدران هذه الحجرة المزخرفة ورفع الرقع المستحدثة فيها، ظهر في الجهة الشطية منها بقايا فتحة قديمة، لم يعرف في بادىء الامر فيما اذا كانت في الاصل محل باب او شباك، لانها كانت متصلة بجدار حديث متين، يحمل احدى القبب الكبيرة العائدة الى المباني العسكرية المستحدثة التي كانت لا تزال تحت استعمال الجيش فعلا.

فقد استحصلت الدائرة على موافقة وزارة الدفاع على هدم القبة مع الجدران التي تسندها، بالرغم من متانتها، واستفادة الجيش منها. وبعد الهدم، تبين لها بان الفتحة المذكورة كانت بابا، وان الباب المذكور كان مدخل القصر، من جهة الشط. فالداخل الى القصر من هذا الباب، كان يجد نفسه امام "ما بين" مزخرف، فكان يستطيع ان ينتقل من الما بين الى القاعات الخلفية، او الى الرواق المحيط بالصحن، كما كان يستطيع ان يصل الى الايوان نفسه، تحت ظلال هذا الرواق.

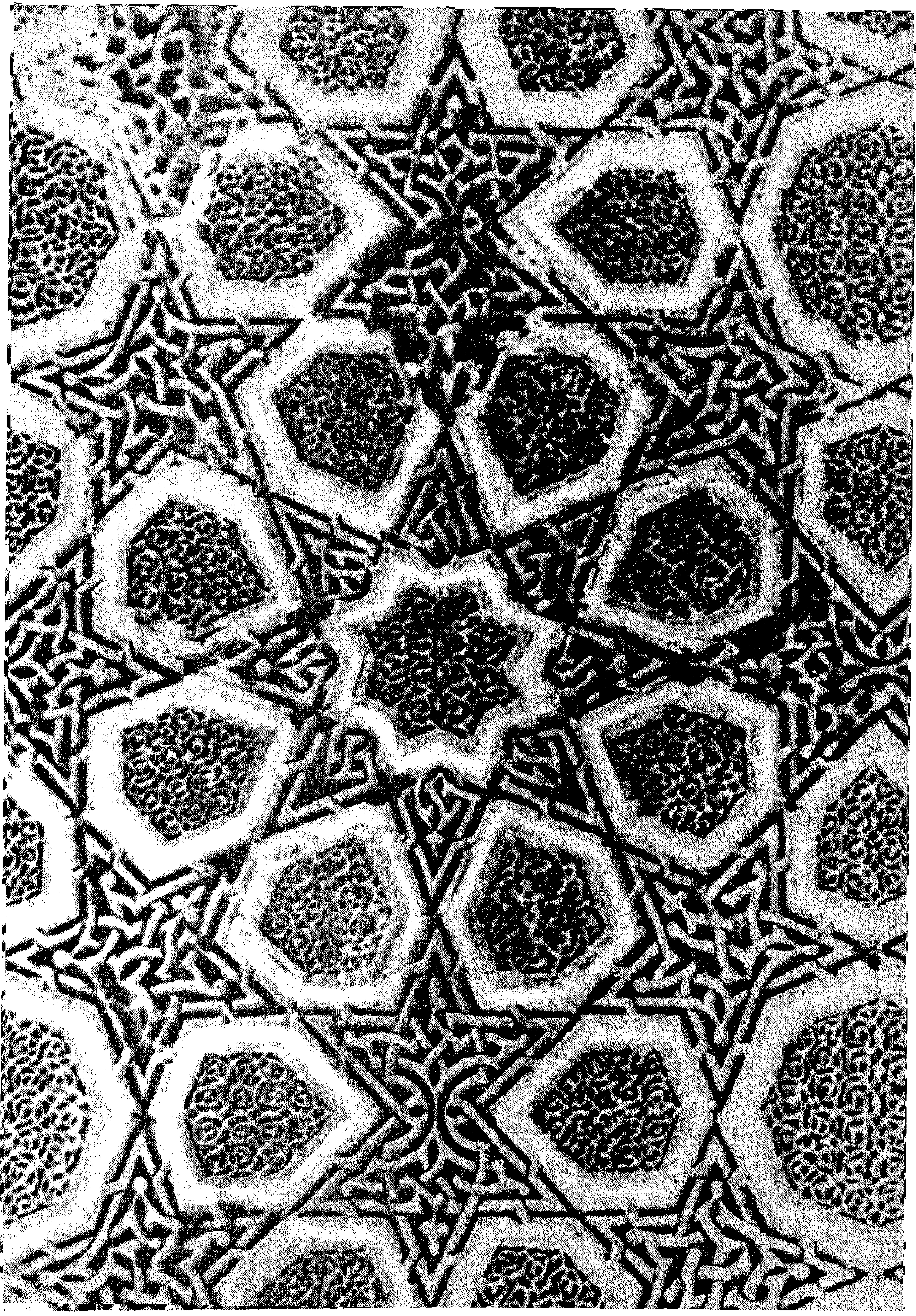
تقسيمات القصر

١ ـ الايوان

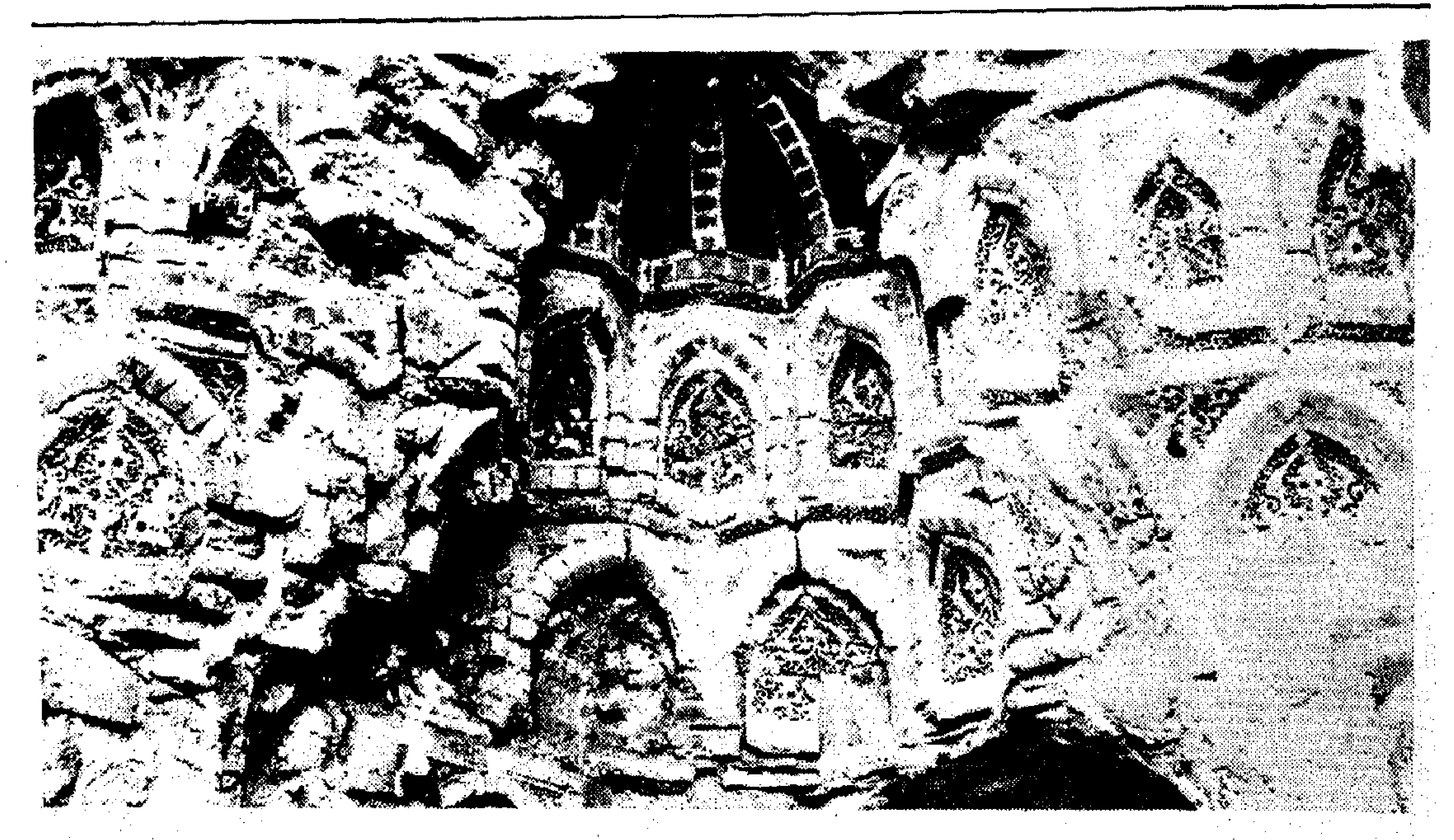
ان ابرز واهم اقسام القصر، هو "الايوان"، وهو بمثابة "قاعة كبيرة" مفتوحة من جهتها الامامية فتحة تامة. يبلغ عرض هذا الايوان نحو خمسة امتار، وطوله ثمانية امتار ونصف، واما سقفه البيضي، فيرتفع عن الارض اكثر من تسعة امتار.

والقسم الاعلى من جدران هذا الايوان مستور بزخارف بديعة، حتى اعلى السقف. غير ان القسم المزخرف من الجدران يبرز عن اسفلها على شكل افريز جميل، يبدأ من علو ثلاثة امتار ونصف.

كما ان القسم الامامي من جداري الايوان يرجع الى الوراء، نحو اربعين سنتمترا على طول متر واحد، وهذا القسم المتراجع يصعد على طول السقف، فيكوّن امام الايوان نطاقا منخفضا، مزخرفا بزخارف خاصة، يزيد في جمال المجموع زيادة بارزة.



تفاصيل الزخارف



بقايا زخارف على جدران الرواق (في الزاوية الشرقية الجنوبية)

والزخرفة التي تستر هذا النطاق الامامي، تنزل الى ما تحت مستوى الافريز الذي ذكرناه آنفا، حتى تتصل بطاقين صغيرين، يعلوان بابين جانبيين، يكونان بمثابة قاعدتين لهذا النطاق المزخرف.

٢ ـ الصحن الرواق

ان فتحة الايوان البديع تتصل بصحن مستطيل قليلا، (طوله ٤١٫٥ وعرضه ٤٠ مترا)، كان هذا الصحن محاطا برواق ذي طابقين، كانت تنفتح وراء طوق هذا الرواق ابواب الغرف، من ارضية وفوقانية. غير انه في بعض الجهات، يتحد الطابقان لتكوين قاعات مرتفعة، مثل الايوان.

ان اكثر الاقسام القائمة الان تقع في الجهة الجنوبية من القصر وتعود الى الضلع الجنوبي من الصحن، واما البعض منها فتقع في الجهة الشرقية منه.

٣ ـ الضلع الجنوبي

يتالف القسم الجنوبي من سبع غرف صغيرة (عرضها ٤٫٣٢ طولها ٣٫٨٠م)، وكان يعلو كل واحدة من هذه الغرف غرفة فوقانية، جدران وسقوف الاربعة منها لا تزال قائمة الى الآن.

واما الرواق الذي كان يتقدم ابواب هذه الغرف، فكان يستند على ثمانية اعمدة، يبلغ ثخن كل واحدة منها (١٫٥١) مترا، والفاصلة بين كل اثنين منها متران، والبعد بينها وبين جدار الغرف الامامي في الطابق الارضي (١٫١٠) مترا.

ان سلسلة هذه الغرف السبع، تنتهي في طرفيها بمجازين جانبيين (عرض كل منهما ١٫٧٠، طوله وارتفاعه ٤٫٨٦ امتار).

وهذان المجازان يتصلان بدهليز طويل ومرتفع، يمتد خلف سلسلة الغرف، متوازيا ومتناظرا للرواق الذي امامها (عرض الدهليز ١٫٢٨، طوله ٤٦٫٧٠، ارتفاعه امتار).

ويقوم خلف هذا الدهليز الطويل اربع قاعات كلها مرتفعات.

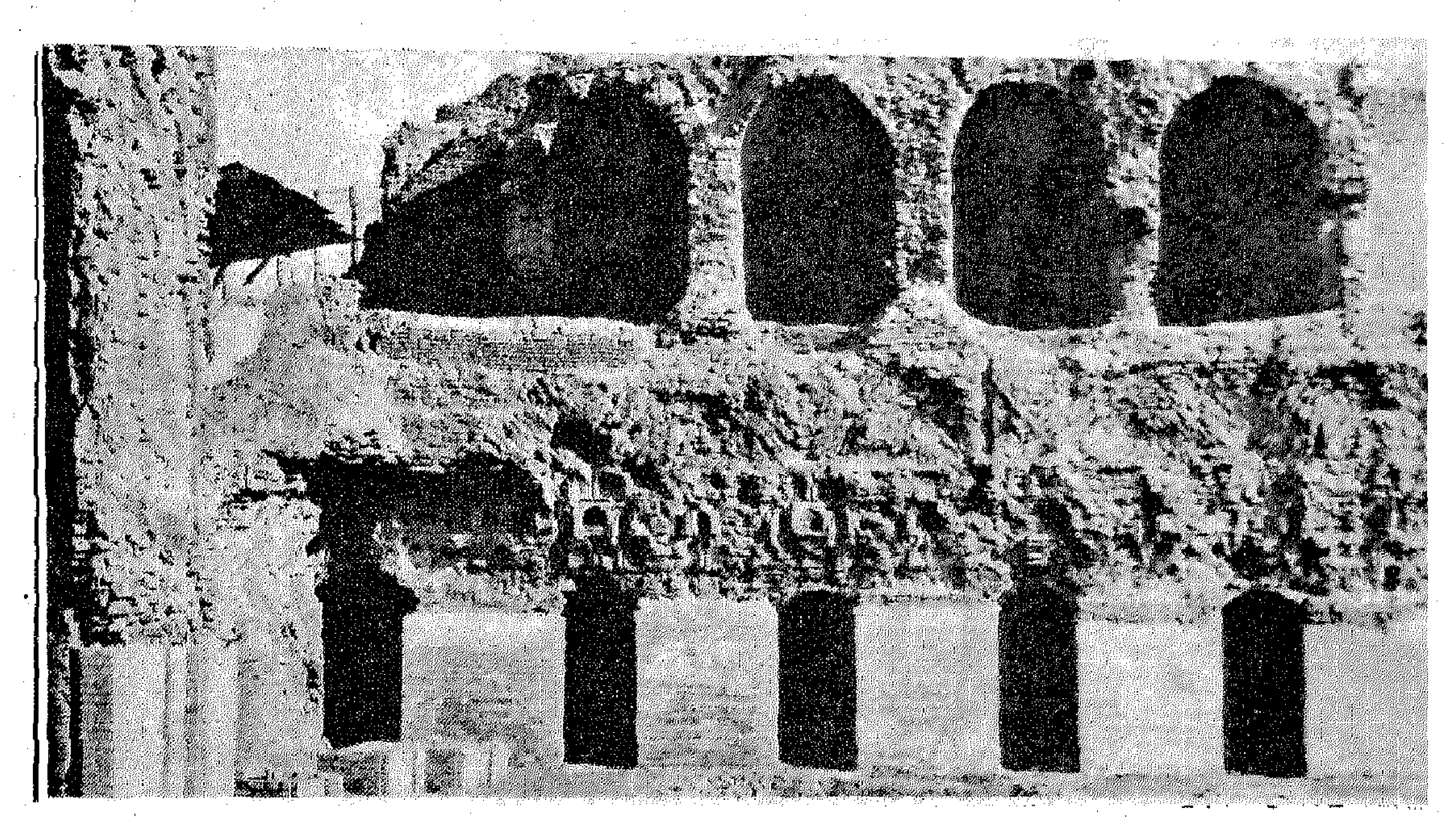
وعدا ذلك كله، فان المجاز الجانبي الذي يقع في الجهة الغربية من هذه الغرف، يتصل بدهليز مزخرف، ذي ثلاثة اضلاع، يحيط بحجرة مزخرفة، من جهاتها الثلاث. ولهذا الدهليز خمسة ابواب.

مواد البناء وطرز البناء

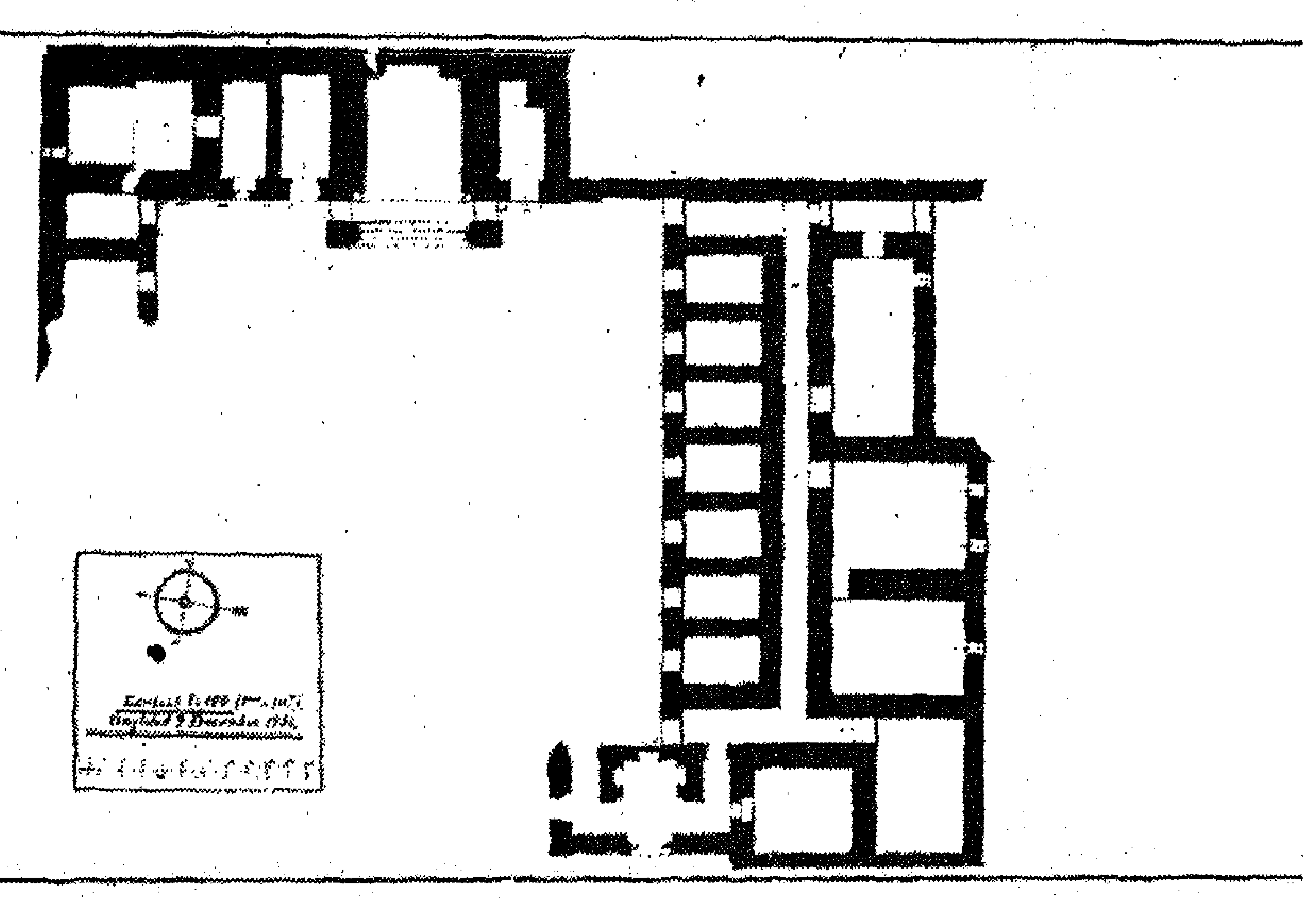
ان جميع اقسام البناء مشيدة بالآجر (الطابوق). حتى ان الطوق والسقوف ايضا معقودة بها.

وهذه العقادات مشيدة على احد الشكلين التاليين بوجه عام:

(أ) الشكل المعروف بين البنائين باسم "الدور"، والذي يشبه مقطع نصف البيضة.



منظر مأخوذ بعد أعمال التقوية والصيانة (الجبهة الجنوبية)



مخطط بقايا القصر بعد رفع المباني المستحدثة

(ب) الشكل المعروف بين البنائين باسم "المدني"، والذي يشبه مقطع سلة مسطحة القعر، مقوسة الجانبين.

ان سقف الايوان وسقوف المجازات كلها من النوع الاول. واما سقوف الغرف والقاعات، فجميعها من النوع الثاني.

ان اكبر الطوق المعقودة على الشكل الاول، يشاهد في الايوان. اذ ان هذا الطاق معقود على جدارين، يبعد احدهما عن الاخر نحو خمسة امتار.

واما اكبر السقوف المعقودة على الشكل الثاني، فيشاهد في قاعة اخرى الى جانبها؛ اذ ان سقف هذه القاعة، يعلو فوق جدارين، يبعد احدهما عن الآخر، نحو (٥ر٤) امتار. واما عقود الابواب، فانها تجمع الشكلين بوجه عام. اذ ان كل باب يتألف من طاقين: الخارجي منهما على شكل "الدور" والداخلي منهما على شكل "المدني".

واما عقادات الرواق، فلا شك في انها ايضا كانت تجمع الشكلين: اذ كان يوجد امام كل باب قبة مقعرة، وكان يمتد بين كل قبتين متواليتين سقف مسطح منخفض. وكانت تتصل هذه القبب والسقوف، بطوق الابواب وجدران الرواق، بواسطة سلسلة من المقرنصات.

الزخارف

ان الزخارف التي كانت ولا تزال تزين جدران وسقوف بعض اقسام البناء ايضا مصنوعة من الآجر.

والدقة والكثرة التي تمتاز بها هذه الزخارف حملت بعض العلماء على الاعتقاد بانها مصنوعة من الجص والستوك، ومصبوبة بواسطة قوالب خاصة. غير ان التدقيقات الواقعة لم تترك مجالا للشك في ان هذه الزخارف كلها من الاجر بدون استثناء.

ان جميع تلك السقوف والسطوح والمقرنصات المزخرفة، تتكون من تلاصق قطع من الآجر، مختلفة الاشكال والحجوم؛ كل واحدة منها محفورة ومنقوشة

ان معظم قطع هذا الآجر الزخرفي مسطحة. غير انها تلتحم بعضها مع بعض بواسطة قطع رقيقة، تقع زخرفتها على ثخنها لا على سطحها العريض.

وكثيرا ما تبرز حافات هذه القطع الرقيقة عن سطوح القطع التي تقع بينها مما يجعل الزخارف كثيرة النتوء، كأنها محفورة في الخشب الى اعماق مختلفة.

وتكون هذه القطع في بعض الجهات منحنية السطوح، تقع نقوشها على سطوحها المقعرة.

والدقة المبذولة في هذه الزخارف - علاوة على تنوعها - تكسب هذا القصر، مكانة فنية خاصة، باعتبار زخرفة البناء.

توجد في اقطار العالم المختلفة، قصور كثيرة، عربية وغير عربية، مزدانة بزخارف بديعة، مصنوعة من الحجر او الخشب، مكونة من الجبسين او الزلاج (الكاشاني). غير انه لا يوجد قصر او معبد بلغت فيه "الزخرفة بواسطة الآجر" الى هذا الحد من "التنوع في الفروع مع البداعة في المجموع".

فيمكننا ان نقول: ان ما تبقى من القصر العباسي في بغداد، يمتاز بهذا الاعتبار عن جميع المباني المعلومة، في العراق وفي خارج العراق، فانها تعد من اهم المباني الاثرية، لانها ـ ـ "الدرجة القصوى" التي وصل اليها فن البناء في "زخرفة الآجر".

آراء في التاريخ

■ حكاية معارك وأحداث تتعلق بالشعوب، خاصة، وبالانسانية، عامة.........................."ليتريه"
■ هو علم الأشياء المتميزة..........................."ليبنيتز"
■ هو علم الأشياء التي لا تعاد أبداً. ...."ب. فاليري"
■ هو التوفيق بين القوانين والصدفة. ...."أ. شولجين"
■ إن أولى أسس التاريخ كله، هي تلك الحكايات التي تنقل من الآباء الى الأبناء، ومن ثم، من جيل الى جيل آخر.."فولتير"
■ التاريخ الحقيقي ليس هو تاريخ وجود الجبهات أو عدمه، بل هو تاريخ الحضارة. ...."ر. كروسيه"
كيف نكتب التاريخ.
■ التاريخ ليس فناً، انه علم صرف. ...."فوستل دو كولانج"
■ التاريخ ليس علماً سهلاً. ان الشيء الذي يدرسه معقد جداً: فالمجتمع البشري جسم، لا يمكننا ان نفهم وحدته والتناسق فيه الا بعد ان ندرس، تدريجياً وعن قرب، كل عضو فيه يعطيه الحياة. ...."فوستل دو كولانج"
■ التاريخ فن، وايضاً علم. ...."تين"
■ التاريخ ليس علماً، انه فن، لا ننجح فيه الا بالتخيل. ...."أ. فرانس"
■ التاريخ الحقيقي هو تاريخ العادات والشرائع والفنون وتقدم الفكر البشري... ...."فولتير"